إلياس خوري

الهزيمة والنكبة المستمرة

كيف نقرأ هزيمة الخامس من حزيران بعد خمسين عاماً، وكيف نتعامل مع آثارها المدمرة التي وسمت الواقع العربي؟ هل شاع تعبير "النكسة" كي يكون غطاء يُعفي المسؤولين عن هذه الكارثة من مسؤولياتهم؟ وهل تحتاج الهزيمة إلى نقد ذاتي، أم إلى تحديد للمسؤوليات يُخرجها من طابع قراءاتها الثقافية التي سادت طويلاً؟

تأخذنا هذه الأسئلة إلى ربط الهزيمة بالنكبة، فالحركة القومية التي قادت الانقلابات العسكرية كردّ على النكبة، صارت، عبر هزيمتها العسكرية المخزية، جزءاً من مسار نكبوي بات يشمل المشرق العربي برمّته.

في خطاب استقالته مساء التاسع من حزيران/يونيو ١٩٦٧، استخدم الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر كلمة "النكسة"، كي يصف الهزيمة المروعة التي مُني بها الجيش المصري في حرب الأيام الستة. وخطاب ناصر الذي قدم فيه استقالته وأعلن بشجاعة لن تتكرر عند الحكام المستبدين العرب مسؤوليته عن الهزيمة، شكّل صدمة كبرى للرأي العام العربي الذي وعده الإعلام المصري بأن نتائج الحرب ستكون محسومة لمصلحة العرب. وعلى عكس خُطب ناصر التي كان يلقيها الزعيم المصري أمام جماهير حاشدة، بلغته العامية المحببة لدى الجماهير، فإن خطاب الاستقالة جاء بلغة عربية فصيحة وسلسلة وبسيطة، تشبه لغة صحافي محترف. أغلب الظن أن رئيس تحرير "الأهرام"، محمد حسنين هيكل، هو الذي كتب نص الخطاب أو حرر صيغته النهائية، وإليه يجب أن تُنسب هذه الكلمة الملتبسة التي تشير إلى الهزيمة من دون أن تسمّيها. والواقع أن سلاسة الخطاب، والنبرة الحزينة الصادقة في صوت "الريس"، أشعلتا تظاهرات صاخبة في مصر قالت وسائل الإعلام المصرية إنها كانت عفوية تطالب الرئيس بالعودة عن استقالته، الأمر الذي سمح لناصر بتنفيذ انقلاب كامل على قيادة المشير عبد الحكيم عامر للجيش المصري، وإحداث إصلاح في الجيش نتجت منه حرب الاستنزاف التي كانت مقدمة لحرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣.

إذا قارنّا بين كلمة نكبة التي صاغها قسطنطين زريق في سنة ١٩٤٨ في كتابه "معنى النكبة"، من أجل وصف كارثة ١٩٤٨، وبين الكلمة التي استخدمها هيكل لوصف هزيمة ١٩٤٨، فإننا نجد أن ما قام به "الأستاذ"، وهذا

هو اللقب المعتمد لكبير الصحافيين المصريين، لا يعدو أن يكون تصحيفاً لكلمة نكبة عبر استبدال حرف الباء بحرف السين، وفي عملية الاستبدال البسيطة هذه يكمن الفرق بين سلطة المثقف ومثقف السلطة.

كان زريق مؤرخاً وأستاذاً جامعياً أدى دوراً كبيراً في بلورة الفكر القومي، ولا شك في أن "الكتاب الأحمر" الذي صاغه ألهم العديد من الحركات القومية العربية. هذا المثقف الدمشقي الذي كان أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت، حاول أن يستكشف كنه الكارثة بصفتها تحدياً شاملاً للوجود العربي، ومن هذا المنطلق صك الكلمة التي صارت اليوم عصية على الترجمة، لأنها أصبحت اسماً معتمداً للكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني. وعلى عكس النقد الذي وجهه إلى هذه الكلمة عدد من المثقفين العرب، بينهم صادق جلال العظم في كتابه "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، فإن زريق لم يجد كلمته في القواميس الكلاسيكية العربية، ولم يعتمد الاستخدام القديم للكلمة الذي نجده في كتاب "لسان العرب" لابن منظور، إذ تُعرّف النكبة بصفتها "المصيبة من نكبات الدهر"، وهي كلمة شاعت في العصر العباسي مع ما اصطُلح على تسميته "نكبة البرامكة"، وإنما من المرجح أن يكون قد استخدم الكلمة بمعناها الحديث الذي أضفاه عليها أمين الريحاني في "كتاب النكبات". فالريحاني لم يتحدث في كتابه هذا عن نكبات الطبيعة التي لا يتحمل مسؤوليتها البشر ولا يمكن مواجهتها، أو عن النكبات التي أنزلها الحاكم المستبد بوزيره، كحال البرامكة مع الخليفة هارون الرشيد، بل قدّم صورة تاريخية للهزائم العسكرية الكارثية التي حلّت بالعرب، وتوقف ملياً عند الحروب الصليبية. ولا بد من الإشارة إلى أن زعيم الحركة الوطنية اللبنانية كمال جنبلاط كان أول مَن التفت إلى كتاب الريحاني وعمّمه في مقابلاته، ويقال إن هذا التعميم ربما يكون أحد الأسباب التي قادت إلى اغتياله قرب حاجز للقوات السورية في منطقة الشوف في جبل لبنان، في ١٦ آذار/مارس ١٩٧٧.

استخدام زريق للكلمة كان نابعاً من وعي عميق بالعجز العربي والفلسطيني عن مواجهة الغزوة الصهيونية، وبضرورة إصلاح السياسة والمجتمع العربيين وتحديثهما. وهو بذلك وضع عبارة النكبة في سياقها التاريخي على خطى أمين الريحاني.

أمّا هيكل الذي كان يصرّ على تقديم نفسه بصورة الصحافي، فإنه "الجرنالجي" بحسبه وبحسب لغة آبائنا الذين كانوا يستخدمون كلمة "الجرنال" الفرنسية بدلاً من كلمتَي "الصحيفة" أو "الجريدة" العربيتين اللتين شاعتا في أيامنا. وكلمة "جرنالجي" على الرغم من جذرها الفرنسي، لها لاحقة تركية، وهذه اللاحقة "جي" ارتبطت بكثير من الكلمات، لأنها بحسب الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه "غرائب اللهجة اللبنانية السورية" تدل على حرفة أو عادة، مثل جوهرجي وحلونجي وكندرجي وبوياجي وخضرجي وصابونجي...إلخ.

هذا المزيج الفرنسي ـ التركي أنتج كلمة "جرنالجي" التي حملت تناقضاً بين مكونَيها: فالمكون الفرنسي حمل معاني القيَم التي أنتجتها الثورة الفرنسية، وسمح للصحافة بأن تشهد ولادة مصطلح المثقف بعد نص إميل زولا الشهير "أنا أتهم"، أمّا المكوّن العثماني فحمل معنى العلاقة الاستتباعية بين السلطة والكاتب.

غير أن هذين المكونين ليسا صافيين، ذلك بأن كل منهما حمل مجموعة من التناقضات الداخلية. ففي حين تحاول البنى الرأسمالية الغربية تقليص حرية الصحافة عبر الهيمنة عليها من خلال الاحتكارات والإعلانات، فإن الصحافة العربية خاضت وتخوض معارك حريتها بشجاعة عبّرت عن نفسها من خلال التمسك بالحرية التي دفع عدد كبير من الصحافيين حياتهم ثمناً لها.

الأستاذ "الجرنالجي" كان في الوسط وسعى طوال حياته للمطابقة بين شقّي مهنته. فهو

حديث وتحديثي من جهة، وصديق السلطة والناطق باسمها من جهة ثانية. وهذا لا يعني أنه كان على وفاق دائم مع السلطة، إذ قادته معارضة السادات إلى السجن، لكنه حاول طوال حياته أن يكون لسان السلطة أو سلطتها الفكرية والثقافية، وتصرّف ليس بصفته صحافياً يبحث عن الأسرار، بل بصفته حامل أسرار السلطة وأحد صنّاع لغتها.

منذ كرّاس "فلسفة الثورة" برزت بصمة هيكل على اللغة الناصرية. هل كتب هيكل الكرّاس، أم كان مجرد مستكتب في خدمة الضباط الأحرار؟ أغلب الظن أنه كان الاثنين معاً، وكان في ذلك "المثقف" الأول الذي تبنّى وروّج فكرة البطل ودوره في التاريخ. محورية نصوص هيكل وصلت إلى ذروتها في النص الذي كتبه كخطاب لجمال عبد الناصر بعد الهزيمة الحزيرانية. يومها انكشفت اللغة الناصرية، ودخلنا في عصر "النكسة".

لماذا استخدم هيكل وناصر كلمة نكسة ولم يستخدما كلمة هزيمة؟

في كتابه "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، الذي صدر في بيروت في سنة ١٩٦٩، استخدم الفيلسوف السوري، صادق جلال العظم، كلمة هزيمة، لوصف ما جرى في حرب حزيران/يونيو.

وعلى الرغم من النقد الذي وجهه العظم إلى هيكل في أكثر من مكان في كتابه، فإنه لم ينتقد كلمة نكسة، بينما توقف عند كلمة نكبة، وقدم نقداً لاذعاً لها. يبدو لي من خلال عودتي إلى هذا الكتاب الذي شكّل علامة فارقة في وعي جيل عربي للواقع المتردي الذي أوصلنا إلى الهزيمة، أن العظم لم يأخذ كلمة نكسة على محمل الجد، ولم يتنبه إلى ما تحويه هذه العبارة من دلالات، لأن نقده للناصرية كان في تلك الفترة محكوماً بالأيديولوجيا اليسارية التي كانت ترى في تجربة ناصر طريقاً لارأسمالياً إلى الاشتراكية، على طريقة النظرية السوفياتية التي كانت سائدة آنذاك.

استخدم هيكل عبارة نكسة بمعناها الشائع، أي ككبوة أو تعثّر لا يمس البنية السائدة، فالنكسة هي نكبة مخففة يستطيع البطل إخراجنا منها، إذا أُعطي تفويضاً جديداً من الشعب. وهي أيضاً وصف يمكن أن يُعطى لمعركة في حرب طويلة لم تضع أوزارها بعد. هل كان ناصر يشير إلى هذا الاحتمال، أم كان يتلافى الكلام عن الهزيمة، كي لا يجد نفسه في مواجهة إحداث تغيير جذري في بنية النظام السياسي المصري؟

اتكأ ناصر على التفويض الذي منحته إياه تظاهرات ٩ و١٠ حزيران/يونيو، من أجل إحداث تغييرات في الجيش، لكنه لم يكن في وارد الانقلاب على الطبيعة الاستبدادية لنظامه. وقد قادت هذه الطبيعة الاستبدادية خليفته أنور السادات إلى سياسات رأسمالية جديدة، وإلى اتفاقيات كامب دايفيد مع إسرائيل التي كشفت المشرق العربي وعرّضته للكوارث التي لا تزال تتوالد حتى يومنا هذا.

لا أدري ما إذا كان هيكل، وهو يعثر على كلمة نكسة، واعياً إلى أن المعنى الحرفي للكلمة ليس أقل سوءاً ومهانة من كلمة هزيمة. فكلمة نكس تعني في "لسان العرب" قلب الشيء على رأسه، والناكس: المطاطئ رأسه، بينما كلمة هزيمة، بحسب المصادر القاموسية العربية، تعني الانكسار في القتال. لم يكن هيكل وناصر في وارد البحث عن الكلمة الملائمة لوصف ما جرى في حرب حزيران/يونيو، ذلك بأن اللجوء إلى كلمة نكسة كان مجرد محاولة للتخفيف من أثر الصدمة، عبر استخدام كلمة يمكن تفسيرها بأن الجيوش العربية لم تُهزم، بل تراجعت إلى "خط الدفاع الثاني"، مثلما جاء في البلاغات العسكرية، لينكشف بعد ذلك أن هذا الخط لم ترسمه الجيوش المنسحبة، وإنما رسمته الدبابات الإسرائيلية، وأن ما سُمي انسحاباً لم يكن سوى انهيار شامل بدأت ملامحه ترتسم من خلال صور الجنود المصريين الهائمين في صحراء سيناء.

على الرغم من حدسه العلمي الكبير الذي قاده إلى رؤية هزيمة ١٩٤٨ بصفتها إحدى نكبات العرب الكبرى، فإن قسطنطين زريق لم يقرأ النكبة كمسار بدأ في سنة ١٩٤٨، وإنما قرأها كحدث تاريخي محدد يمكن مواجهته بالانقلاب. والانقلاب في قاموس زريق بقي تعبيراً غامضاً، هل كان يعني به ثورة شاملة تخلخل الوضع الراهن؟ أم انقلاباً نخبوياً في رأس هرم السلطة؟ غير أن الانقلاب العسكري سرعان ما قدّم التأويل العملي للكلمة عندما احتلت الانقلابات العسكرية المتتالية في سورية الحياة السياسية العربية، ثم وصول ناصر والضباط الأحرار إلى السلطة في مصر. والجدير ذكره أن منظّر حزب البعث ميشال عفلق سيستخدم هو أيضاً كلمة الانقلاب كمرادف لكلمة ثورة، مشرِّعاً الباب أمام الديكتاتوريات العسكرية السوداء التي قادت إلى دمار المشرق العربي.

على الرغم من جذور الناصرية العسكرية المصرية، وهي حركة ظهرت خارج مهد الحركة القومية العربية في بلاد الشام والعراق، فإنها نجحت في أن تكون الوريث الشرعي للفكر القومي الذي يُعتبر زريق أحد مؤسسيه، وشكلت القطب الذي تمحورت حوله الحياة السياسية العربية لعقدين شهدا انتصارات وتراجعات، من النصر السياسي على حملة سيناء في سنة ١٩٥٦، إلى الوحدة السورية ـ المصرية التي لم تعش أكثر من ثلاثة أعوام، وصولاً إلى حرب اليمن. غير أن الذي ميّز التجربة الناصرية هو مشروعها التحديثي على مستويات البنى الاقتصادية والاجتماعية، من الإصلاح الزراعي وبناء الصناعة الثقيلة، والقرارات الاشتراكية، إلى مشروع جيش قوي تعلّم من دروس حصاره في الفلوجة خلال حرب النكبة سنة ١٩٤٨.

صبيحة الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ تهاوى كل شيء، ومُني الجيش المصري، ومعه الجيشان الأردني والسوري، بواحدة من أشنع الهزائم العسكرية في التاريخ العربي.

هل كانت هزيمة الخامس من حزيران/يونيو حتمية؟ ماذا جرى؟ ولماذا؟

إن قراءة نكبة ١٩٤٨ بمعطياتها الموضوعية تشير إلى أن هزيمة المقاتلين الفلسطينيين غير النظاميين، ومعهم الجيوش العربية التي دخلت الحرب في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، كانت حتمية على جميع المستويات: من الدعم الدولي للمشروع الصهيوني الذي جمع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، إلى موازين القوى العسكرية على الأرض التي كانت لمصلحة الصهيونيين، إلى دخول الجيوش العربية الحرب بعدما كانت إسرائيل قد أنجزت عملياً الاستيلاء على مدن حيفا ويافا وطبرية وهجّرت سكانها. والواقع أن قراءة متأنية لوقائع الحرب، تشير إلى أن الدول العربية الحديثة العهد بالاستقلال لم تكن تملك القدرات العسكرية، أو الإرادة السياسية لخوض حرب فلسطين، كأن تلك الحرب، وخصوصاً على الجبهة الأردنية، كانت من أجل رسم حدود لتقسيم فلسطين، اتفقت مصالح القادة العرب والإسرائيليين على ألاّ يكون فيها مكان لدولة فلسطينية مستقلة.

لكن هل كانت هزيمة حزيران/يونيو، بصورتها المخجلة والمهينة، حتمية هي أيضاً؟

كانت مصر الناصرية التي قادت الحرب حليفة للمعسكر السوفياتي، وتمتلك شبكة تحالفات دولية متميزة من خلال مجموعة عدم الانحياز، وكان الجيش المصري ومعه الجيش السوري يمتلكان ترسانة من الأسلحة السوفياتية توازي السلاح الغربي الذي كانت تمتلكه إسرائيل. كما أن الحرب لم تكن مفاجئة، إذ سبقها حشد استعراضي للجيش المصري في سيناء واغلاق لمضائق تيران.

كل شيء كان يشير، وخصوصاً بعد تشكيل حكومة "وحدة وطنية" إسرائيلية، إلى حتمية الحرب، فلماذا حدثت مفاجأة سحق الطيران المصري على أرض المطارات الحربية المصرية في الساعات الأولى من صباح الاثنين ٥ حزيران/يونيو؟ ولماذ انهار الجيش المصري

وصدرت الأوامر إليه بالانسحاب العشوائي، قبل أن يتسنّى له الاشتباك مع القوات الإسرائيلية الزاحفة نحو قناة السويس؟

أسئلة لا تزال بلا أجوبة بعد مرور نصف قرن على الحرب.

كانت الهزيمة صاعقة وغير متوقعة. كيف يمكن أن تُسحق الجيوش العربية كما لم تُسحق في سنة ١٩٤٨؟ أين ذهبت تباشير النهضة القومية؟ وماذا حل بالجيش الذي استولى على السلطة انتقاماً من هزيمته في سنة ١٩٤٨؟

الصدمة التي تركت الشعوب العربية مذهولة وعاجزة ـ فخرجت إلى الشوارع مطالبة ببقاء الزعيم في منصبه، كأنها تستسلم أمام الأب الذي ضحى بأبنائه على مذبح الفشل ـ وجدت مؤشراتها الأولى في أعمال أدبية طليعية كانت يومها هامشية.

قد يكون الأدب هو الإطار الأفضل الذي يسمح لنا بالتقاط مؤشرات الهزيمة. وسأتوقف بسرعة عند ثلاثة أعمال استطاعت ـ على الرغم من انتماءات مؤلفيها الأيديولوجية ـ أن تخترق عبر نصوص أدبية طليعية، الضباب الأيديولوجي الذي أحاط بالمرحلة، وجعل من الهزيمة أشبه بالمفاجأة الصاعقة.

أتوقف أولاً عند قصيدة اللبناني خليل حاوي "لعازر عام ١٩٦٣". كان حاوي أحد الشعراء التموزيين الذين شكلوا كوكبة طليعية أدت دوراً مركزياً في تأسيس الشعر العربي الحديث. انتمى حاوي في مطلع شبابه إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، ثم اقترب من الفكر القومي العربي، وكتب ملحمة ديوانه "نهر الرماد"، التي أسست إلى جانب أعمال السياب وأدونيس وجبرا إبراهيم جبرا قاموس الدعوة إلى الانبعاث السياسي والحضاري. في سنة ١٩٦٣ قلب حاوي المعادلة في قصيدة طويلة بطلها لعازار الذي يرفض أعجوبة يسوع الناصري التي أحيته من الموت، وبدلاً من أناشيد الإله تموز أو أدونيس التي تمجد القيامة، جاء حاوي بنشيد الموت الذي يعلن فشل الانبعاث وعبثيته. كان ذلك بعد انهيار الوحدة السورية ـ المصرية، كأن حاوي رأى مؤشرات الخراب الآتي، وصرخ على لسان بطله لعازر:

الجماهير التي يعلكها دولابُ نارْ
من أنا حتى أردَّ النارَ عنها والدوارْ
عمِّق الحفرةُ يا حفارُ
عمِّقها لقاعٍ لا قرارْ

وخلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في سنة ١٩٨٢، مات حاوي منتحراً برصاصة من بندقية صيد أطلقها على نفسه.

وأتوقف ثانياً عند رواية غسان كنفاني القصيرة "رجال في الشمس"، التي صدرت في بيروت في سنة ١٩٦٣. وهي رواية رمزية أسست للرواية الفلسطينية بعد النكبة، ويمكن اعتبارها العمل الأدبي الأول فيما أطلق عليه إدوارد سعيد "الرواية ما بعد المحفوظية". وعلى الرغم من أن النقد الأدبي العربي اعتبر هذه الرواية صرخة من أجل كسر حاجز العجز الفلسطيني، ودعوة إلى المقاومة الجماعية، وهذا صحيح؛ وعلى الرغم أيضاً من أن قراءات الرواية ركزت على اعتبارها جواباً على نكبة ١٩٤٨، وعلى اعتبار سائق شاحنة خزان الماء التي قادت ثلاثة فلسطينيين إلى حتفهم في الصحراء الكويتية، ممثلاً للقيادات العربية والفلسطينية، وهذا تأويل منطقي؛ فإن سائق الشاحنة الذي صار عاجزاً جنسياً بسبب إصابته في حرب النكبة في سنة ١٩٤٨، واسمه "أبو الخيزران"، اتخذ معنى جديداً بعد هزيمة حزيران/يونيو... إنه القيادة العاجزة التي قادت الفلسطينيين والعرب إلى هزيمتهم.

كنفاني الذي بدأ حياته السياسية والكتابية كعضو في حركة القوميين، أصبح بعد هزيمة حزيران/يونيو أحد قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والصوت الأدبي الفلسطيني الأكبر تأثيراً، وستغتاله الاستخبارات الإسرائيلية في ضاحية الحازمية قرب بيروت في سنة ١٩٧٢.

وأتوقف ثالثاً عند رواية المصري صنع الله إبراهيم "تلك الرائحة"، وهي رواية قصيرة صدرت في القاهرة في سنة ١٩٦٦، مشكّلة بداية موجة الرواية الجديدة في مصر. فإبراهيم الذي سُجن خمسة أعوام في مصر بتهمة الانتماء الشيوعي، كتب في هذه الرواية شهادته عن تجربته الشخصية بعد الخروج من السجن، وفيها نكتشف أن القاهرة صارت كلها سجناً، وأن قمع النظام الاستخباراتي الناصري جعل الكتابة شبه مستحيلة. مُنعت الرواية في مصر، واتُّهمت بالإساءة إلى الأخلاق، وسخر ضباط الرقابة من عجز بطلها الجنسي. وفي الرواية إشارة نادرة إلى حرب اليمن، إذ نرى جنوداً مصريين عائدين من حرب اليمن، يعبرون في أحد القطارات وسط لامبالاة الجمهور.

هذه الأعمال الأدبية تقدم ثلاثة نماذج متنوعة لقراءة الهزيمة قبل وقوعها. حاوي قرأ مؤشرات الهزيمة بلغة وجودية تطرح أسئلة عن جدوى فكرة الانبعاث التي هيمنت في الخمسينيات وأوائل الستينيات على الشعر العربي، بينما قدّم كنفاني قراءة لعجز القيادة واستسلام الناس للحلول الفردية، أمّا إبراهيم فقدّم قراءة للقمع والاستبداد.

بعد هزيمة حزيران/يونيو سنعيش طوفاناً من النصوص الأدبية، وسيحتل نزار قباني مكانة كبرى في هذا الاتجاه، قبل أن يأتي الشعر الفلسطيني، وخصوصاً بصوت محمود درويش، ليستعيد الصوت الفلسطيني المغيّب، ويقرأ النكبة الفلسطينية المستمرة بصفتها جرحاً إنسانياً مفتوحاً. كما ستشهد الرواية العربية مع نجيب محفوظ وإميل حبيبي وجمال الغيطاني وأدب الحرب اللبنانية اقتراباً جديداً من الحياة اليومية بلغة جديدة تؤسس لشكل روائي مفتوح.

غير أن اللافت هو أن هذا الطوفان بقي أخرس أمام وقائع الهزيمة، إذ لم تصدر رواية واحدة تصف الهول الذي عاشه الجنود خلال أيام حزيران/يونيو الدامية. كيف نقرأ هذا الصمت المريب؟ هل هو الصدمة، أم هو القمع؟... كيف سكتت الأقلام عن وصف ما جرى واكتفت بالترميز؟

يبدو أن القمع والقمع الذاتي وهيمنة الأيديولوجيا التي تعسكرت على يد الضباط والأساتذة القوميين، هي سبب هذا الصمت المريب الذي سبق أن عاشه الأدب المصري خلال حرب اليمن المأسوية والكارثية النتائج. إنه صمت الروح الذي مهّد لتحويل هزيمة حزيران/يونيو إلى منعطف الانحطاط العربي الجديد.

من جهة أُخرى عاشت الثقافة العربية غلياناً لا سابق له بعد هزيمة الخامس من حزيران/يونيو، الأمر الذي أوحى بأن الثقافة العربية كانت أمام منعطف حداثة جديدة هيمن عليها الصوت الأدبي والفني الذي ارتبط بصعود المقاومة الفلسطينية، وببداية تلمّس طروحات فكرية جديدة عبّر عنها عبد الله العروي وياسين الحافظ ومحمد عابد الجابري وصادق جلال العظم، وهي محاولات تقدم قراءات متنوعة لكيفية النهوض، وتتراوح بين الدعوة إلى التاريخانية والمرور بالمرحلة الليبرالية، وبين تبنّي العقلانية ونقد الدين.

ربما كان ياسين الحافظ أول مَن بلور قراءة عقلانية ماركسية للهزيمة في كتابه "الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة"، فهذا المفكر الماركسي ذو الأصول البعثية دعا إلى التغلب على التخلف العربي عبر فكر تنويري جديد يستند إلى تاريخانية غرامشي، ويستمد عناصره من قراءة العروي للأيديولوجيا العربية المعاصرة. غير أن تأثير الحافظ الذي انكفأ على المستوى السياسي مع فشل مشروع حزبه اليساري الجديد "حزب العمال الثوري العربي" المنشق عن حزب البعث، كان محدوداً أمام الصخب السياسي والفكري الذي صنعته المقاومة الفلسطينية، وخصوصاً أن الحافظ مع زميله الياس مرقص وجّها نقداً لاذعاً إلى المقاومة الفلسطينية من منظور رؤيتهما إلى الدور المحوري لمصر الناصرية في معركة إزالة آثار العدوان.

على عكس الحافظ، كان صادق جلال العظم،

من خلال عمله كرئيس لتحرير مجلة "دراسات عربية"، لصيقاً بالتجربة الفلسطينية، وخصوصاً بالجبهة الديمقراطية.

لمع نجم العظم مع كتابه "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، وترسخت مكانته بعد صدور كتابَيه "نقد الفكر الديني" و"نقد فكر المقاومة الفلسطينية"، واحتل حيزاً محورياً في الحياة الثقافية العربية، وخصوصاً بعد اعتقاله في لبنان ومحاكمته بسبب دراسة في كتابه "نقد الفكر الديني"، قدمت قراءة علمانية لحكاية إبليس القرآنية، وكانت بعنوان "مأساة إبليس".

قدّم العظم في عنوان كتابه اعتراضاً واضحاً على تعبير النكبة، مشدداً على فكرة الهزيمة التي يجب البحث عن أسبابها من أجل إصلاح أعطاب المجتمعات العربية. وبعد مقارنته الهزيمة العربية أمام إسرائيل بالهزيمة الروسية أمام اليابان في سنة ١٩٠٥، قدّم نقداً للتأويلات الدينية للهزيمة، وسخر من الخطاب اللاعقلاني الذي ساد الأوساط العربية الحاكمة عشية الحرب، واقترب من نقد عدم جذرية الناصرية بخفر، وركّز على نقد التخلف الذي أعاق التكيّف مع استخدام التكنولوجيا الحديثة، وأشار إلى غياب البحث العلمي، وتوقف عند مفهوم "الشخصية الفهلوية" الذي استعاره من عالم الاجتماع والمربّي المصري حامد عمّار. لقد أدى مفهوم الشخصية الفهلوية ـ التي حددها عمّار بصفتها "البحث المستمر عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق غاية معينة، مع تجنّب العناء والجد المطلوبَين عادة في اجتياز العقبات للوصول إلى تلك الغاية" ـ دوراً محورياً في البناء النظري للكتاب، مقدّماً المدخل لفهم الهزيمة باعتبارها جزءاً "من نزعة إزاحة المسؤولية عن النفس وإسقاطها على الغير." وعلى الرغم من أن الرئيس المصري أعلن تحمّله نتائج النكسة، في خطاب استقالته، فإنه حمّل المسؤولية أيضاً للتدخل الأميركي والبريطاني في مجريات الحرب، كما قدّم تفسيراً يثير الأسى والسخرية في آن معاً: "إن العدو الذي كنّا نتوقعه من الشرق والشمال جاء من الغرب."

شكّل نقد العظم للهزيمة علامة أساسية لانهيار سطوة الخطاب القومي السائد، لكن قراءتنا للكتاب تشير إلى مسألتين:

الأولى، أنه كتاب يركز على المسألة الحضارية والعلمية والتربوية، ويقدم نقداً للشخصية العربية، وللبنى الاجتماعية السائدة محمّلاً إياها مسؤولية الهزيمة.

الثانية، أن الكتاب لم يتوقف أمام الاستبداد العسكري وحكم دولة الاستخبارات وتحوُّل الجيش إلى إقطاع سياسي/عسكري جديد، وبالتالي أعفى بنية النظام السياسي والإدارة الفردية لشؤون الدولة من مسؤولياتها عن الهزيمة.

والمفارقة هي أن العظم في نقده الحضاري والعلمي والتربوي لم يستطع الخروج من الإطار النظري الذي اختطّه قسطنطين زريق في كتابه "معنى النكبة"، وأعاد تأكيده بعد الهزيمة الحزيرانية في كتاب "معنى النكبة مجددا". أي أن نقد العظم بقي في إطار نقد فيلولوجي لكلمة نكبة، ولم يقرأ هزيمة حزيران/يونيو باعتبارها منعطفاً تاريخياً سمح للنكبة المستمرة التي بدأت في سنة ١٩٤٨، بأن تتخذ منعطفاً جديداً وتجتاح كل فلسطين التاريخية، بل تصل تداعياتها إلى هذا التفكك الانهياري الذي تعيشه المجتمعات العربية في سورية ولبنان والعراق وليبيا واليمن... أو في هذا الاستشراء القمعي الذي يغطي العجز بالعجز كما في بقية أنحاء المشرق العربي من مصر إلى السعودية ودول الخليج.

المنعطف الذي دخلته المنطقة في حزيران/يونيو ١٩٦٧، كان يؤشر إلى انهيار المشروع القومي، وهو انهيار أدى عاملان أساسيان دوراً في تأكيده: موت جمال عبد الناصر على إيقاع "أيلول الأسود" في الأردن، وفشل حرب تشرين الأول/أكتوبر في تحقيق انتصار ناجز يفرض إزالة آثار العدوان عبر انسحاب إسرائيلي بلا قيد ولا شرط من الأراضي العربية المحتلة.

موت ناصر حمل دلالات رمزية كبيرة، فقد وجد الزعيم نفسه في تناقض مع المولود الشرعي للحركة القومية الذي تمثله المقاومة الفلسطينية، قبل أن يكتشف عدم قدرته على منع اندلاع حرب أهلية صغيرة في الأردن، في غمرة عمله على إعادة بناء الجيش المصري تمهيداً لخوض حرب حتمية مع إسرائيل.

أمّا فشل حرب تشرين الأول/أكتوبر فكان إعلاناً بدخول المنطقة في زمن الحرب الأهلية التي بدأت في لبنان في سنة ١٩٧٥، واستعادت زخمها بعد الغزو الأميركي للعراق، لتصير اليوم، مع وحشية ردات فعل الأنظمة الاستبدادية على ثورات الربيع العربي، علامة تحوّل المشرق العربي إلى أرض المآسي، وإلى ساحة تتلاعب بها القوى الدولية.

السؤال الذي لم يُطرح بعد هو عن مسؤولية الاستبداد عن هزيمة حزيران/يونيو، وهي هزيمة تتحمل مسؤولياتها بنى سياسية وعسكرية وأفراد فرّطوا بالأمانة، وغرق بعضهم في الفساد، بينما انتشى بعضهم الآخر بالاستبداد المطلق الذي قدّم افتراضاً غريباً هو أن الجيش طليعة ثورية وليس قوة عسكرية للدفاع عن الوطن. لم تكن الهزيمة نتاجاً أوتوماتيكياً للتخلف العربي، مثلما زعمت أغلبية المحللين، إذ صحيح أن تخلّف البنى السياسية والاجتماعية والعسكرية أدى دوراً أساسيا في الطريق إلى الهزيمة، إلاّ إن الذي عبّد هذا الطريق هو الاستبداد الذي حوّل الجيوش العربية إلى فلول عاجزة عن القتال.

فلسفة النكسة على طريقة هيكل استولدت تحليلاً سياسياً رفع شعاراً يقول إن هدف حرب حزيران/يونيو كان إسقاط الأنظمة التقدمية، وبالتالي فإن هذه الحرب التي شنّتها إسرائيل فشلت في تحقيق هدفها.

سمح هذا الشعار لمنظّري العسكريتاريا العربية بتحوير معنى النكسة من شبه هزيمة إلى شبه انتصار. فإذا كانت إسرائيل فشلت فهذا يعني أنها لم تنتصر؛ وإذا كانت الأنظمة لم تسقط فهذا يعني أن العرب انتصروا! أو تراجعوا لكنهم لم يهزموا.

هذا الشعار المدمر الذي تبناه النظامان المصري والسوري رسم المصير البائس للمنطقة العربية. فإذا كانت التضحية بالأرض ممكنة من أجل حماية النظام، فإن كل شيء يصبح مباحاً ومستباحاً من أجل هذا الهدف. انظروا ماذا جرى ويجري في العراق واليمن وسورية كي تكتشفوا هول هذا الشعار.

السؤال الذي ينفجر اليوم، على شكل نكبة متجددة في فلسطين، ومآسٍ كارثية في بلاد المشرق العربي، هو لماذا تكون الدولة إذا لم تكن من أجل حماية الأرض والشعب؟ أم إن النظام صار طوطماً يبيح تدمير الدولة والمدن وتشريد الشعب وقتله، كي يبقى نظام الاستبداد مخيماً على الخراب؟

ما لم تتنبه له الحركة القومية هو أن النكبة الفلسطينية لم تكن حدثاً تاريخياً، مثلما جرى تصويرها، وإنما هي مسار تاريخي لم يتوقف في الأراضي الفلسطينية التي صار اسمها إسرائيل. فمصادرة الأراضي وتهجير السكان وخنقهم بالحكم العسكري، والتهجير الداخلي القسري، ومشاريع التهويد، ومنع المهجّرين من العودة إلى قراهم، ممارسات استمرت، واتخذت أشكالاً قانونية وصلت إلى حد اختراع تعبير قانوني إسرائيلي سوريالي لوصف جزء من الفلسطينيين في إسرائيل بمصطلح قانوني لا شبيه له في أي مكان من العالم هو "الغائب الحاضر".

هذه النكبة المستمرة اتسعت واتخذت أشكالاً جديدة في الضفة الغربية والقدس وغزة بعد احتلالها في سنة ١٩٦٧، لنصل اليوم إلى نظام فصل عنصري شامل بحسب التقرير الممتاز الذي أعده ريتشارد فولك وفرجينيا تلي، وصدر عن منظمة الأسكوا في ١٥ آذار/مارس ٢٠١٧، والذي سُحب من موقع المنظمة الدولية الإلكتروني بقرار من الأمين العام للأمم المتحدة، وقاد إلى استقالة المديرة التنفيذية

للأسكوا ريما خلف احتجاجاً على قرار الأمين العام.

أمّا المشرق العربي الذي غرق بعد الهزيمة وفشل حرب تشرين الأول/أكتوبر في عتمة الصراع الوحشي بين أصوليتين: أصولية الاستبداد والأصولية الظلامية الدينية، فإن محاولة شعوبه الثورة على الاستبداد بحثاً عن حريتها وكرامتها اصطدمت بتوحّش القمع من جهة، وضعف النخب القيادية الديمقراطية من جهة ثانية، والتدفق الأصولي "الجهادي" بشقّيه السنّي الوهابي والشيعي التابع لولاية الفقيه، من جهة ثالثة.

هل هذا هو ثمن هزيمة حزيران/يونيو الذي تدفعه بلاد المشرق العربي منذ نصف قرن؟

هل كانت الهزيمة فاصلة في نكبة مستمرة منذ سنة ١٩٤٨، لم تستطع الحركة القومية مواجهتها، فصارت النكبة طوفاناً تحتاج مقاومته إلى بداية فكرية وسياسية جديدة؟

هذا هو السؤال. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مراجعة للسياسات الإسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية

مجموعة باحثين

تحرير: جميل هلال، منير فخر الدين، خالد فراج